أيام بيروت ..

بقلم الدكتور حسين مؤنس

كان الليل يرسل آخر انفاسه عندما حطت بنا الطائرة في مطار بيروت . كانت الحرب قد بدأت واقفلت مصر مطاراتها وموانئها وتدافعت عصابات اسرائيل تنفذ الجزء الأول من أبشع جرائم الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين ، وكانت احقر دول الأرض — انجلترا وفرنسا — قد وجهتا الى مصر هذا الكلام السخيف الذي سمتاه انذاراً ، وامهلتا مصر اثنتي عشرة ساعة تختار خلالها بين احتلال مدن القنال أو الحرب ، وكنا واثقين من النصر ، ولم تكن لنا الا رغبة واحدة : العودة الى ارض الوطن لنأخذ مكاننا في المعركة ...

وأول ما ترامى الى سمعي بعد ان بارحت المطار صوت غلام يغني : الاستقلال يا جمال ! فهرولت نحوه اقبله وأسأله عن الأخبار ، فقال والفخر يملأ نفسه : قضت مصر على هجوم اسرائيل ! فقبلته مرة أخرى ، واخذتنا السيارة الى فندق اسبغ الله عليه ما شاء من نعمة التواضع ، ولم نكن بحاجة الا الى سقف نستقر تحته ، فقد كان الصبح قد اسفر وتصايحت الديكة وتعالت أصوات المؤذنين ترسل الرحمة والبركة على العالمين ، فصليت الصبح واضطجعت على فراش لا ادري أكان خشناً ام ليناً ، وكلما غفت عيني نبهتني دواعي القلق ، واغرق صاحبي في النوم حتى حسبت انه لن يستيقظ بعدها أبداً ، وكلما استرسل مع الأحلام تعالت من انفه وفمه أصوات كأنها صفارات الانذار ، فأناديه لأوفز عليه هذا الجهد العظيم الذي يبذله في الصفير ، فيفيق ويقول : أما والله اني لقلق ! اما والله اني لمشغول ! ثم ينقلب على الجنب الآخر ويسترسل في العزف على المزامير ...

ومضيت انظر من خلل الستر فاذا الصبح قد متع والضحى قد اقترب ، فنهضت ، ولم اكن قد خلعت ثيابي ، وخرجت أسأل عن الأخبار ، فما راعني الا غلام الفندق يقول في هدوء :

— نزلت الجنود الأنجليزية مصر ، وهي في الطريق الى القاهرة ..

وامسكت بكتفه أهزه هزاً ، واقول :

— اين سمعت هذا الخبر يا غلام الشؤم ...

— من صوت بريطانيا !

— الا لعن الله بريطانيا وصوت بريطانيا .. هات الصحف .. فأتاني بها ، فاذا الأمر أهون بكثير مما قال هذا التعس الذي لا يسمع غير صوت بريطانيا ... رجالنا يكتسحون عصابات اسرائيل ، والقراصنة لم ينفذوا انذارهم بعد ، ومصر تتأهب وتتحفز ، والعالم العربي كله يغلي كأنه تنور يكاد يخرج منه الطوفان ...

وهرولت الى السفارة المصرية ، فتلقانا رجالها بهذا الهدوء الدبلوماسي : وجوههم مشرحة طافحة بالبشر تتحدث عن نوم عميق هادئ .

وخرجنا نبحث عن فندق آخر ، فأخذونا الى مكان جميل ، جمع اصحابه فيه كل وسائل الراحة والتعب أيضاً : الراحة ساعة النوم والتعب ساعة دفع الحساب ، وخف مدير الفندق يقول : — لدي كل ما تريدون : غرف بالماء الساخن والبارد والفاتر ايضاً اذا اردتم ، وغرف بتكييف الهواء وأخرى بتكييف المزاج ، وغرفة بحمام ، واخرى بحمامين ، بل لدينا حمام بلا غرفة وتكييف بلا هواء ... كل شيء ممكن هنا في لبنان .. وانتهينا الى غرفة مكيفة ملطفة مهندمة فيها جهاز إذاعة ، فاغلقت الباب وجعلت ابحث عن القاهرة ، فلم يسعفني بها الجهاز ، فوقفت عند محطة بيروت ،

، واستعنت بخدم الفندق ، فما زلنا ندير مفاتيح الجهاز حتى انتهينا بعد لأي ، الى القاهرة ، وترامى الى الأذن الصوت الحبيب ، واطمأن البال بعض الشيء ، وانتقلنا الى دمشق ، فاذا الحماس اقوى والأصوات كأنها شواظ تلتهب ، وهبطت على القلب السكينة ، وعلمت ان القراصنة لم يجرؤوا بعد ، واغفت عيني من التعب ، حتى ايقظني طرق على الباب ، واذا بسيد تجمعت مصائب الزمان كلها على رأسه حتى لم تبق فيها شعرة واحدة ، ووجهه لا قسمات فيه ولا ملامح كأنه شريحة من لحم الخنزير . نظرت الى هذا الوجه استفسره واستنطقه ، ولكنه ظل جامداً ساكناً ، ثم قال :

— الخواجه يطلب شيئاً ؟ — خواجه ؟ اي خواجه ... ؟

— اقصد ... المسيو يطلب شيئاً ... — مثل ماذا ؟ ...

— شيئاً من المشروب او الطعام في الغرفة ..

فتهالكت على مقعدي وقلت له :

— ويل لي منك ! لقد افزعتني بوجهك الجنائزي هذا حتى

حسبت ان السماء قد انطبقت على الأرض ... اليك عني ارجو بمشروبك ... ومأكولك ... قل لي ... هل سمعت شيئاً .. هل لديك أخبار ...

— لا اخبار ... حرب ، ضرب ، قنابل ، تخريب ... ما في شيء مهم ... المصريون يجاهدون يا حرام ...

— كل هذا ولا شيء ... ماذا كنت تنتظر ...

— كنا نخشى ان يتقرر اغلاق مطار بيروت ...

فضربت كفاً بكف ومضيت اقول :

— الف حمد لله ... الضرب والقتل والدمار ، كل هذا شيء هين ... ولكن كارثة اغلاق المطار لم تقع ... تسمح بالذهاب وأغلاق الباب قبل ان اغلق فمك هذا الى الأبد ...

فوقف امامي بليداً ساكناً ، ونادى :

— جورجيت.. تعالي انظري ما يقول الخواجه ، انني لا افهم عنه وقمت فاغلقت الباب ، لكي استريح منه ومن جورجيت ايضاً..

وبدأنا نلقى أصحابنا من ادباء لبنان ، وتبينت للوهلة الأولى ان اوساط العلم والأدب في لبنان تمتاز بظاهرة لا نعرفها نحن في مصر ، وهي ان الأديب او العالم هو في نفس الوقت ناشر وطابع في كثير من الأحيان . ذلك لأن انتاج الكثيرين منهم من الغزارة والضخامة بحيث يحتاج بالفعل — الى دار نشر خاصة تقوم به وحده : هناك من يؤلف الكتاب الضخم في شهر ، ومن يترجم الأثر العظيم في اسابيع ، وهناك من يؤلف او يترجم اربعة كتب او خمسة في آن واحد ، كأنه جالس الى مائدة حافلة بالألوان يأخذ لقمة من هذا ولقمة من ذاك . وهذا الطراز من المنتجين يؤلفون لك في اي موضوع شئت باي حجم شئت ، وانت تطلع على قوائم مؤلفاتهم فتحس وكأنك تطالع قائمة الطعام في مطعم كبير ، فيها كل شيء من المشهيات والمداخل — الى القهوة وما بعدها ، ولكنك ينبغي أن تسلم لهم بشيئين : غلافات الكتب وورقها ، فاما الأولى فجميلة حقاً ، متقنة حقاً ، وأما الورق فجيد في الغالب لا تنهض بأثمانه ميزانيات قراء الكتب في غير لبنان ... ويبدو أنهم سمعوا ان خير الكلام ما كان « مطبوعاً » فطبعوا كل شيء ، لكي يصبح كل شيء من خير الكلام ..

وقد راعني بالفعل ذلك النشاط الأخير ، ورأيت فيه بشيراً بخير عظيم ، فان هذه الكتب كلها تنتشر في العالم العربي الواسع من الخليج الى المحيط ، وهي تضم علماً كثيراً يفتح العيون وينير القلوب ، ولا يسع العربي الا ان يهدي الى لبنان أحسن الشكر على هذه الخدمة الكبرى التي يؤديها هذا البلد الصغير الكبير للأمة العربية بنشاطه وجهده وعلمه ...

ولطالما تمنيت لو ان هذه الأقامة الطويلة في لبنان كانت في غير هذا الوقت العصيب ، لأنني قضيت هذه الأيام مشرد الذهن مبلبل الخاطر لا اكاد افعل شيئاً غير التدخين والاستماع الى الأخبار . وكم من يوم قضيته ملتصقاً بجهاز الأذاعة اتنسم الأخبار دقيقة بعد دقيقة . خبر يذهب بي الى الشمال وخبر يذهب بي الى الجنوب ، خبر يهبط له قلبي الى قدمي وخبر استرد به شعاع نفسي المفرقة ، ولو كنت في مصر ما نالني شيء من هذا القلق ، لأنني اعرف مكاني في هذه المعركة ... أما ان تدور وأنا بعيد عنها لا استطيع ان اقوم بالواجب المقدس فهذا يملأ نفسي حسرة والماً ... ولقد ظللت سنوات انتظر لحظة الجهاد والفداء ، فلما دق الناقوس اراد الله ان أكون بعيداً عن ارض الوطن ، مغلول اليد . لا استطيع شيئاً غير ترقب الأخبار والابتهال الى الله . ولم أفقد ايماني لحظة واحدة ، لأنني اعرف شعبي وما أعده لمعركة الحرية والبقاء ، واعرف رجال مصر الذين ارادت المقادير المسعدة ان يتولوا امورها في هذه المعركة الحاسمة ... ولكن الذي كان يخنقني ويغصني بريقي هو الحرمان من فرصة الجهاد والوقوف بعيداً والمعركة دائرة ، وقطع الأيام في تسكع مخجل امام المذياع ، وكل نصيبي من الجهاد ان ادير المفتاح من محطة لمحطة ... وأنا على ذلك كله على ساعة وربع من الوطن بالطائرة ، ولكن ، أين هي ؟ اين من يحملني ويلقي بي في اي مكان من ذلك الوطن المقدس ؟ .

ولولم تساعفني المقادير بصاحب يشاركني حمل ما الاقي ونفر من الأصحاب تلتهب قلوبهم بالحماس للعرب والعروبة لأصابني شيء دون شك ، فاما الصديق فهو الدكتور شوقي ضيف وأما الأصحاب ففي طليعتهم الدكتور محمد نجم ، والدكتور نبيه امين فارس ، والاستاذ محمود زايد ، فقد عشنا هذه الأيام معهم وبهم ، وعاشوا معنا ولنا ... وهذا من فضل الله ...

انها أيام لا تنسى ، ايام من الحسرة والألم والضيق في القلوب ، ومن النصر والعزة والكرامة في ارض الوطن ، أيام لا اظن انني انساها ابداً ... دخلت مصر خلالها احسم معركة في تاريخها والناس لا يعرفون عن قوتها شيئاً ، وخرجت منها قوة عظمى تجمع حولها هذا العالم العربي الناهض وتسير معه في طريق العزة والكرامة . ايام كانت الوحدة العربية فيها كلاماً فاصبحت حقيقة تهز عروش الطواغيت وتزلزل الأرض تحت اقدامهم ... أيام قضيتها في بيروت دون ان أرى من بيروت شيئاً : وانما كان القلب والبصر معلقين بالأفق البعيد ، حيث يقوم شاطئ مصر وتدور معركة بور سعيد : اعظم نقطة تحول في تاريخ مصر والعرب جميعاً يتقدمهم ذلك الشاب الأسطورة جمال ...

حسين مؤنس